الطبيعى والمكتسب فى الصفات البشرية

إن المناقشات عن الفروق بين الطبيعى والمكتسب فى الصفات البشرية هى أحد أقدم الموضوعات الفلسفية فى علم النفس. ما هو الموضوع بالضبط؟

طه عبدالباقى الطوخى

كاتب ومترجم من مصر

تشير الصفات الطبيعية إلى الجينات والعوامل الوراثية التى تحدد من نكون – بدءا من طبيعة ومظهر أجسامنا إلى صفاتنا الشخصية. أما الصفات المكتسبة فتشير إلى كل المتغيرات البيئية التى تنعكس علينا، ويشمل ذلك كل ما مررنا به فى طفولتنا، وكيف نشأنا، وتعليمنا، وظروف عائلاتنا، كما يشمل ذلك أيضاً علاقاتنا الاجتماعية، وقوانين المجتمع، والثقافة والظروف البيئية المحيطة بنا (شوارع، ومدارس، ومجارٍ مائية، وتليفزيون، وأساليب انتقال ...)، وغير ذلك كثير.

وكثيراً ما تأخذ فروع علم النفس المختلفة أحد المفهومين فى مقابل الآخر. فمثلاً، يميل علم النفس البايولوجى إلى التأكيد على أهمية الجينات والمؤثرات البايولوجية. أما أصحاب المدرسة السلوكية على الجانب الآخر، فهم يركزون على أثر البيئة فى تشكيل السلوك.

نظرة عن قرب على «الطبيعى» فى مقابل «المكتسب»:

ما هو التأثير الأكبر على سلوكياتنا؟ الجينات أم العوامل البيئية؟ وهل صفاتنا الموروثة تلعب دوراً أكبر فى تشكيل شخصياتنا عما يمكن أن تفعله ظروف نشأتنا وما نمر به من خبرات فى الحياة. وكما سلف ذكره، تشكل المناقشات عن «الطبيعى» فى مقابل «المكتسب» أحد أقدم الموضوعات فى علم النفس. وترتكز هذه المناقشات حول المساهمات النسبية لكل من الجينات الوراثية والعوامل البيئية فى تطور وارتقاء الجنس البشرى.

● ويميل بعض الفلاسفة من أمثال أفلاطون وديكارت إلى اعتبار أن أشياء معينة هى فطرية (بالميلاد)، أو أنها تحدث طبيعياً بصرف النظر عن المؤثرات البيئية. ويعتقد الطبيعيون أن كل أو معظم الصفات والسلوكيات تنشأ من الوراثة.

ويعتقد المدافعون عن وجهة النظر هذه أن كل صفاتنا وسلوكياتنا هى نتيجة للتطور. وتؤثر الصفات الجينية الموروثة عن آبائنا فى الاختلافات الفردية التى تجعل من كل شخص حالة متفردة.

● ويعتقد مفكرون معروفون آخرون من أمثال جون لوك John Locke فيما يعرف باللوحة الفارغة التى تفترض أن العقل يبدأ كلوحة فارغة. وطبقاً لهذه الفرضية، فكل شيء عنا وكل معرفتنا تأتى نتيجة للخبرة والتجربة.

● أما التجريبيون فيأخذون موقفاً آخر وهو أن كل أو معظم سلوكياتنا وصفاتنا تنتج من التعلم. والمدرسة السلوكية هى مثال جيد للنظرية المتجذرة فى «التجريبية». ويعتقد السلوكيون أن كل الأفعال والتصرفات هى نتيجة للظروف والتكيف. أما النظريون من أمثال جون واطسون John B. Watson فقد اعتقدوا أن الناس يمكن تدريبهم لفعل أى شيء وأن يصبحوا أى شيء بصرف النظر عن خلفياتهم الجينية.

أمثلة عن الصفات الطبيعية فى مقابل المكتسبة:

عندما ينجز شخص ما نجاحاً أكاديمياً عظيماً، فهل تم لهم ذلك لأنهم ميالون جينياً ليكونوا ناجحين أم أن ذلك حدث نتيجة لوجودهم فى بيئة خصبة، شجعت على التعلم وتقدير العلماء؟ إذا أهان رجل زوجته وأولاده فهل حدث ذلك لأنه وُلِد بميول عدوانية، أم أن ذلك حدث نتيجة لأشياء تعلّمها أو لاحظها على تصرفات أيٍ من والديه؟ أو من الشارع أو المدرسة أو التليفزيون؟ أو أو ..

وكأمثلة قليلة: تشمل صفات بايولوجية (طبيعية) محددة أمراضاً جينية معينة، كما تشمل أشياء أخرى مثل لون العينين، ولون الشعر، ولون الجلد، إلخ.

أما عن بعض الأشياء الأخرى مثل توقعات الحياة وطول الجسم فيكون لها مكونات بايولوجية قوية لكنها أيضاً يمكن أن تتأثر بالنشأة والعوامل البيئية ونمط الحياة.

وكمثال للنظرية الطبيعية فى علم النفس مفهوم تشومسكى Chomsky لاكتساب اللغة. أفرام نعوم تشومسكى Avram Noam Chomsky (٧ ديسمبر ١٩٢٨)، هو فيلسوف أمريكى وعالم معرفى، ومؤرخ، وناقد اجتماعى، وناشط سياسى، وعالم لغويات لقبه البعض بـ «أبو اللغويات الحديثة»، وهو يعتبر أيضاً شخصية رئيسية فى علم النفس التحليلى وأحد مؤسسى العلوم المعرفية.

وطبقاً لهذه النظرية، فكل الأطفال يولدون بقدرة عقلية فطرية تسمح لهم بتعلم وإنتاج اللغة.

● إن نظام اكتساب اللغة هو مكوّن نظرى لتفكير الفرد. وقد أشار إليه فى البداية نعوم تشومسكى فى ستينيات القرن العشرين. ويشير إلى قدرة عقلية طبيعية تمكّن الرضيع من اكتساب وتحصيل اللغة. فهو مكوّن

للنظرية الفطرية للغة.

هذا، وترتبط بعض الصفات البشرية بالتأثيرات البيئية. فـ«كيف يتصرف الشخص» يمكن إرجاعه لتأثيرات مبدئية مثل طريقة التربية التى اتبعها معه الوالدان، والخبرات التعليمية التى اكتسبها فى مراحل عمره المختلفة. فقد يتعلم طفل مثلاً من خلال مراقبة والده/ والدته له وتشجيعه على قول «من فضلك» أو «أشكرك». وقد يتعلم طفل آخر أن يتصرف بعدوانية من خلال مراقبته لتورط طفل آخر أو أطفال آخرين أكبر منه فى سلوكيات عنف فى الملعب مثلاً، أو مكان آخر فى غياب راشدين.

وتعتبر نظرية التعلم الاجتماعى للأستاذ ألبرت باندورا مثالاً للنظرية التجريبية فى علم النفس (الأستاذ/ ألبرت باندورا Professor Albert Bandura (٤ ديسمبر ١٩٢٥)، خدم كرئيس للجمعية الأمريكية لعلم النفس ١٩٧٤، وباحث ومدرس بجامعة ستانفورد). وطبقاً لهذه النظرية وسلسلة تجاربه الرائدة المشهورة (بوبو دول) فإن الأطفال يمكن أن يتعلموا السلوكيات العدوانية ببساطة عن طريق مراقبة سلوك عدوانى لأشخاص آخرين.

كيف تتفاعل الصفات الموروثة مع الأخرى المكتسبة؟

ما يؤكده الباحثون هو أن التفاعل ما بين الموروث والبيئى هو العامل الأكثر أهمية فى سلوك البشر. ويصف الباحث البريطانى فى هندسة الجينات، الدكتور/ كيفين دافيس Kevin Davies، مثالا رائعا لهذه الظاهرة بقوله:«إن قمة الكمال هى القدرة على التنبؤ

أفرام نعوم تشومسكي

الدكتور. كيفين دافيس

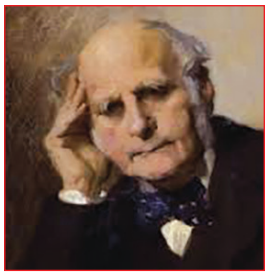

فرانسيس جالتون

بنغمة موسيقية بدون أى مرجع.»

وقد وجد الباحثون أن هذه القدرة يمكن تنميتها فى العائلات، وهم يعتقدون أنها مرتبطة بجين واحد. ورغم هذا، فقد اكتشفوا أيضاً أن حيازة ذلك الجين وحدها ليست كافية لتنمية هذه القدرة. وفى المقابل، فإن التدريب الموسيقى فى الطفولة المبكرة هو شيء ضرورى للسماح لهذه القدرة المتوارثة بالإعراب عن نفسها.

وكمثال آخر، فإن طول القامة هو صفة تتأثر بالتفاعل فيما بين الطبيعى والموروث. حيث يمكن لطفل أتى من عائلة كلها طوال القامة أن يكون قد ورث هذه الجينات لطول القامة. ومع ذلك، فإذا نشأ هذا الطفل فى بيئة محرومة حيث لم يحصل على التغذية الملائمة والتمرين الرياضى المناسب، فربما لا يكتسب طول القامة التى كان يمكن اكتسابها إذا نشأ فى بيئة صحية تراعى ضرورات التغذية والتربية الرياضية فى مرحلتى الطفولة والمراهقة.

نظرات معاصرة عن الصفات الطبيعية فى مقابل المكتسبة

على مدار تاريخ علم النفس، استمرت هذه الأبحاث فى إثارتها للجدل. وقد تأثرت حركة تحسين النسل على سبيل المثال كثيراً بمفهوم الفطرة.

وقد صاغ عالم النفس البريطانى (من العصر الفيكتوري) سير/ فرانسيس جالتون Francis Galton، (١٦ فبراير ١٨٢٢ – ١٧ يناير ١٩١١)، والمخترع والإحصائى وعالم الرياضيات وعالم الاجتماع وعالم النفس وعالم الأنثروبولوجى وتحسين النسل والمستكشف الاستوائى والجغرافى وعالم الأرصاد الجوية وعالم الوراثة والطبيب النفسى ومؤلف أكثر من ٣٤٠ بحثا وكتابا، صاغ مصطلحات «الطبيعى» و«الموروث» و«تحسين النسل»، وهو اعتقد أن الذكاء هو نتيجة الجينات. وقد نادى بأن الأشخاص الأذكياء يجب تشجيعهم على الزواج من أخريات ذكيات وأن عليهم أن ينجبوا أطفالاً كثيرين، بينما الأقل ذكاءً يجب ألا يتم تشجيعهم على الإنجاب. ويجدر ذكر أن فرانسيس جالتون كان يمت بصلة قرابة لتشارلز داروين.

● ويعتقد معظم الباحثين اليوم أن كلًا من الطبيعى والمكتسب يؤثر فى سلوكيات وتطور الإنسان. ومع ذلك، فالمناقشات لا تزال تحتدم، فبينما يؤيد قليلون بشدة مفهوم النظرية التجريبية، نجد الخبراء والباحثين مستمرين فى الجدال بخصوص الدرجة أو المدى الذى تؤثر به كلٌ من الطبيعة والبيئة على السلوك.

● وقد بدأ الباحثون يتحققون من أن التساؤل عن تأثيرات الوراثة أو البيئة على صفة محددة فى الشخص ليس هو المقاربة الصحيحة. والحقيقة أنه لا توجد طريقة بسيطة لتمييز وجود العديد من القوى. وتشمل هذه المؤثرات العوامل الجينية التى تتفاعل مع بعضها البعض، والعوامل البيئية التى تتفاعل معها مثل ظروف النشأة والتربية فى السنوات المبكرة والخبرات الاجتماعية والثقافة العامة وكذلك كيف تختلط كلٌ من العوامل الوراثية والبيئية فى التأثير. ويهتم كثير من الباحثين اليوم بالبحث فى الكيفية التى يؤثر بها كلٌ من الطبيعى والمكتسب فى الآخر. والله أعلم.